من ملك شيئاً فزهد فيه والروح ترتاح الى النقل اما الشرقي الذي يرى اهل باريز ويغبطهم على اكثر ما دبروه لراحتهم ورفاهيتهم فانه يتعجب لمن يساكنهم زمناً كيف ترضى نفسه ان يختار عن باريز بدلاً كما يتعجب لاهلها كيف لا يأسفون على مفارقة الحياة اضعاف اضعاف ما يأسف غيرهم عليها ومن قال بان دواعي الراحة تطيل حبال الآجال ينتظم على اهل باريز لم يعمروا اكثر من عامة الخلق وعندهم النعيم المقيم والخير العميم

* * *

الرسالة العذراء (١)

في موازين البلاغة وادوات الكتابة كتب بها ابو اليسر ابراهيم بن محمد بن المدبر

بسم الله الرحمن الرحيم

ثقف الله بالحكمة ذهنك، وشرح بها صدرك، وانطق بالحق لسانك، وشرف به بيانك، وصل اليّ كتابك العجيب الذي استفهمتني فيه بجوامع كلمك جوامع اسباب البلاغة، واستكشفتني عن غوامض آداب ادوات الكتابة، وسألتني ان اقف بك على وزن عذوبة اللفظ وحلاوته، وحدود فخامة المعنى وجزالته، ورشاقة نظم الكتاب ومشاكلة سرده، وحسن افتتاحه وختمه، والتئام فصوله، واعتدال وصوله، وسلامتها من الزلل، وبعدها من الخطل، ومتى يكون الكاتب مستحقاً اسم الكتابة، والبليغ مستأهلاً لمعاني البلاغة، في اشارته، واستعارته، والى اي ادواته هو احوج، وباي آلاته هو اعمل اذا محص الحق، ودعي الى السبق، وفيمنه [illegible] ابدك الله من ذلك ما يجمع اكثر شرائطك، ويعبر عن جملة سؤالك، وان طولت في الكتاب وعرضت واطنبت في الوصف واسهبت، ومستقص لك نفسي في الجواب على

---

(١) منقولة من مجموع قديم من كتب الشيخ طاهر الجزائري وهي مما كتب [illegible] في القرن الرابع او الخامس

قدر استقصائك في السؤال ، وان اخل به اتيناك الحال ، وسكون الحركة ، وفتور النشاط ، وانتشار الروية وتقسيم الفكر ، واشتراك القلب ، والله المستعان

اعلم ايدك الله ان ادوات ديوان جميع المحاسن وآلات المكارم خاضعة منقادة لهذه الصناعة التي خطبتها وثابتة تابعة لها وغير خارجة الى حد احكامها ولا دافعة لها بلزومها الاقرار به لها اصرارا آسفا اليها وعجزا عنها فاذا نافستك نفسك اليها ونازعتك همتك الى طلبها فاتخذ البرهان دليلاً شاهداً والحق امامًا قائداً يقرب مسافة ارتيادك ويسهل عليك سبيل مطالبها واستوهب الله توفيقاً تستنجح به مطالبك ، واستمده رشداً يجيل اليك بوجوه مذاهبك . فاقصد في ارتيادك . وتأمل الصواب في قولك وفعلك . ولا تسكن الى جحود قصد السابق بالجامح ولا تخرج الى الاهمال حتى التسبب بالمعاندة والانكار ولا تستخف بالحكمة ولا تصغرها حيث وجدتها فترحل نافرة عن مواطنها من قلبك وتظعن شاردة عن مكانها من بالك . وتعفي بعد العمارة من قلبك آثارها وتطمس بعد الوضوح اعلامها واعلم ان الاكتساب بالتعلم والتكلف وطول الاختلاف الى العلماء ومدارسة كتب الحكماء فان اردت خوض بحار البلاغة وطلبت ادوات الفصاحة فتصفح من رسائل المتقدمين ما تعتمد عليه ومن رسائل المتأخرين ما ترجع اليه في تلقيح ذهنك . واستنجاح بلاغتك . ومن نوادر كلام الناس ما تستعين به ومن الاشعار والاخبار والسير والاسمار ما يتسع به منطقك . ويعذب به لسانك ويطول به قلمك . وانظر في كتب المقامات والخطب ومحاورات العرب ومعاني العجم وحدود المنطق وامثال الفرس ورسائلهم وعهودهم وتوقيعاتهم وسيرهم ومكايدهم في حروبهم بعد ان تتوسط في علم النحو والتصريف واللغة والوثائق والشروط وكتب السجلات والامانات فانه اول ما يحتاج اليه الكاتب وتمهر في نزع آي القرآن في مواضعها واجتلاب الامثال في اماكنها واختراع الالفاظ الجزلة وقرض الشعر الجيد وعلم العروض . فان تضمين المثل السائر والبيت الغابر مما يزين كتابتك ما لم تخاطب خليفة او ملكاً جليل القدر فان اجتلاب الشعر في كتب الخلفاء واجلة الرؤساء عيب واستهجان للكتب الا ان يكون الكاتب هو القارض للشعر والصانع له فان ذلك مما يزيد في ابهته ويدل على براعته . وان تعدوت من هذه العلوم ما لا يشغلك عمله . وتقتبس من هذه الفنون ما تستعين به على ايضاح قلمك ولقوة عود بيانك

بعد ان يكون الكاتب صحيح القريحة . حلو الشمائل . عذب الالفاظ . دقيق

القريحة، حسن الآلة، بريئاً من الفدامة، خفيف الروح، حاذق الحس، محكماً للروية، عالماً بحلال الكتاب والسنة وحرامها، وبالملوك وسيرها وأيامها، وبالدهور في تقلبها وتداولها، مع براعة الأدب، وتأليف الأوصاف، ومشاكلة الاستعارة، وحسن الإشارة، وشرح المعنى بشبهه من القول حتى تنصب صوراً ناطقة تعرب عن أنفسها، وتمثل في أوهامها، لأن الحكماء قد شرطوا في صفات الكتاب طول القامة، وصغر الهامة، وخفة اللهازم، وكثافة اللحية، وصدق الحس، ولطف المذهب، وحلاوة الشمائل، وملاحة الزي، حتى قال بعض المهالبة لولده: تزيوا بزي الكتاب فإن فيهم أدب الملوك وتواضع السوقة.

وخاطب كلاً على قدر أبهته، وجلالته، وعلوه وارتفاعه، وتفطنه وانتباهه. واجعل طبقات الكلام في ثمانية أقسام، منها الطبقة العلوية أربعة ودونها، ولكل طبقة منها درجة، ولكل قسمة حظ لا يتسع الكاتب البليغ أن يقصر بأحد عنها، ويقلب معناها إلى غيرها. فالطبقة العليا الخلافة التي أجل الله قدرها عن مساواة أحد من أبناء الدنيا في التعظيم والتوقير والتفخيم والتكرمة. والطبقة الثانية الوزراء والكتاب الذين يخاطبون الخلفاء بعقولهم وألسنتهم، ويرتقون الفتوق بآرائهم وتجاربهم وتدبيرهم. والطبقة الثالثة أمراء ثغورهم وقواد جيوشهم، يخاطب كل امرئ منهم على قدره وموضعه من حياطة أمورهم، ومحال المراتب. والطبقة الرابعة القضاة فإنهم وإن كان لهم تواضع العلماء وحلية الفضلاء فمعهم أبهة السلطان وهيبة الأمراء.

فأما الطبقات الأربع الأخر فالملوك الذين أوجبت نعمهم تعظيمهم في الكتب، وأفضالهم التفضيل لهم فيها. والثانية وزراؤهم وكتابهم والذين بهم تقرع أبوابهم ويتصل بهم نجاح المطالب. والثالثة هم العلماء الذين يجب توقيرهم في الكتب لشرف العلم وعلو درجة أهله. والرابعة لأهل القدر والجلالة والظرف والحلاوة وأهل الأدب فإنهم بفطنتهم وحدة أذهانهم وشدة تمييزهم وانتقادهم إلى الاستقصاء على الكاتب في مكاتبتهم، واستغنوا عن التزين بالتحلي والتزلف والمراءاة لأنفسهم. ثم تجاوزهم عن هذه الآلات والتعاظم بأنهم في هذه الأدوات. ولكل طبقة من هذه الطبقات معان ومذاهب يجب عليك أن ترعاها في مراسلتك إليهم في كتبك، وتزن كلامك في مخاطبتهم بميزانه، وتعطيه قسمه وتوفيه نصيبه، فإنك متى أهملت ذلك لم آمن عليك أن تعدل بهم عن طريقهم، وتجري شعاع بلاغتك في غير مجراه، وتنظم جوهر كلامك

في غير سلكه فلا يفيد المعنى الجزل ما لم يلبسه لفظاً جزلاً لائقاً بمن كاتبه وملبساً لمن راسله . وان الباسك المعنى وان شرف وصح لفظاً مختلفاً عن قدر المكتوب اليه لم تجر به عادتهم تهجين للمعنى واخلال بقدره وظلم لحق المكتوب اليه ونقص مما يجب له كما ان في اتباع تعارفهم وما انتشرت به عاداتهم وجرت به سنتهم قطعاً لعذرهم وخروجاً من حقوقهم . وبلوغاً الى غاية مرادهم واسقاطاً لحجة أدبهم . ومن الالفاظ المرغوب عنها والصدور المستوحش منها في كتب السادات والامراء والملوك على اتفاق المعاني مثل ابقاك الله طويلاً وعمرك ملياً وان كنا نعلم انه لا فرق بين قولهم أطال الله بقاءك وبين قولهم ابقاك الله طويلاً ولكنهم جعلوا هذا أرجح وزناً وانبه قدراً في مخاطبة الملوك كما انهم جعلوا أكرمك الله وابقاك احسن منزلة في كتب الظرفاء والادباء من جعلت فداك لاشتراك معناه واحتماله ان يكون فداء من الخير كما يكون فداء له من الشر ولولا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لسعد بن ابي وقاص فداك ابي وامي لكرهت ان يكتب بها احد الا ان كتاب العسكر وعوامهم قد اولعوا بهذه اللفظة حتى استعملوها في جميع محاوراتهم وجعلوها هجيراهم في مخاطبة الشريف والوضيع والصغير والكبير ولذلك قال محمود الوراق

كل من حل سر من را من النا س ومن بصاحب الاملاكا
لو رأى الكلب ماثلاً في طريق قال للكلب يا جعلت فداكا

وكذلك لم يجيزوا ان يكتبوا بمثل ابقاك الله وامتع بك الا الى الحرمة والاهل والتابع والمنقطع اليك واما في كتب الاخوان فغير جائز بل مذموم مرغوب عنه ولذلك كتب عبدالله بن طاهر الى محمد بن عبد الملك الزيات

أحلت عما عهدت من أدبك ام نلت ملكاً فتهت في كتبك
ام هل ترى ان في التواضع للاخـ وان نقصاً عليك في حسبك
اتعبت كفيك في مكاتبتي حسبك مما يزيد في تعبك
ان جفاء كتاب ذي أدب يكتب في صدره وامتع بك

فكتب اليه محمد بن عبد الملك

انكرت شيئاً فلست فاعله ولن تراه يخط في كتبك
فاعف فدتك النفوس عن رجل يعيش حتى الممات في ادبك
كيف اخون الاخاء يا املي وكل شيء انال من سببك

ان يك جهلاً اتاك من قبلي فعد بفضل عليَّ في أدبك

واما صدور كتب السلف فقد كانت من فلان بن فلان الى فلان كذلك جرت كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى العلاء بن الحضرمي والى اقيال اليمن والى كسرى وقيصر وكتب اصحابه والتابعين كذلك حتى استخلص الكتاب هذه المحدثات من بدائع الصدور واستنبطوا لطيف الكلام، ورتبوا لكل رتبة وجروا على تلك السنة الباقية الى عصرنا هذا في كتب الخلفاء والامراء ثم وافق ذلك المنهاج في كتب الفتوحات والامانات والسجلات ولكل مكتوب اليه قدر ووزن ينبغي للكاتب ان لا يتجاوز به عنه ولا يقصر به دونه . وقد رأيتهم عابوا الأحوص حين خاطب الملوك بمخاطبة العوام في قوله

وأراك تفعل ما تقول وبعضهم مذق الحديث يقول ما لا يفعل

فهذا معنى صحيح في المدح ولكنهم أجلوا اقدار الملوك ان يمدحوا بما يمدح به العوام لان صدق الحديث وانجاز الوعد وان كان مدحاً فهو واجب على كل والملوك لا يمدحون بالفروض الواجبة وانما يحسن مدحهم بالنوافل لان المادح لو قال لبعض الملوك انك لا تزني بحليلة جارك وانك لا تخون ما استودعت وانك تصدق في وعدك وتفي بعهدك كان قد اثنى بما يجب ولكنه لم يصل بثنائه الى مقصده وقال ما لا يستحسن مثله في الملوك

ونحن نعلم ان كل من تولى من امور المؤمنين شيئاً فهو امير المؤمنين غير انهم لم يطلقوا هذه اللفظة الا للخلفاء خاصة ونعلم ان الكيس هو العقل اذا عنوا به ضد الحمق ولكنك لو وصفت رجلاً فقلت : ان فلاناً لعاقل كنت قد مدحته عند الناس ولو قلت انه كيس كنت قد قصرت في وصفه وقصرت به عن قدره الا عند اهل العلم باللغة لان العامة لا تلتفت الى معنى الكلمة الا الى حيث جرت العادة في استعمالها في الظاهر مع الحداثة والغرة وخساسة القدر وصغر السن فقد روينا عن علي رضي الله عنه انه تمدح بالكيس حين بنى الكوفة وقال .

اما تراني كيسا مكيسا بنيت بعد نافع مخيسا
حصناً حصيناً واميراً كيسا

وقال آخر : ما يصنع الاحمق المرزوق بالكيس ونعلم ان الصلوة وحي ابراهيم قد حرموها الا على الانبياء كذلك روي عن ابن عباس (رضه) وسمع سعد بن ابي وقاص أخاً له يلبي ويقول : يا ذا المعارج فقال نحن نعلم انه ذو المعارج ولكن ليس كذلك كنا نلبي على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم انما كنا نقول : لبيك اللهم لبيك وكان ابو ابراهيم

المزني قال في بعض ما خاطب به داود بن علي بن خلف الاصبهاني فقال : وان قيل كذا فقد خرج من الملة والحمد لله فاعتقد عليه ذلك داود وقال : نحمد الله على ان يخرج مسلما من الاسلام هذا موضع استرجاع وللحمد مكان يليق ، ونحن نقول على المصيبة انا لله وانا اليه راجعون .

فامتثل هذه الرسوم والمذاهب واجر على آدابهم فلكل رسوم امتثلوها وتحفظ في صدور كتبك وفصولها وافتتاحها وخاتمتها وضع كل معنى في موضع يليق به وتخير لكل لفظة معنى يشاكلها وليكن ما تختم به فصولك في موضع ذكر الشكوى مثل والله المستعان وحسبنا الله ونعم الوكيل . وفي موضع ذكر البلوى مثل نسأل الله دفع المحذور ونسأل الله صرف السوء . وفي موضع ذكر المصيبة مثل انا لله وانا اليه راجعون . وفي موضع ذكر النعم مثل والحمد لله خالصا والشكر لله واجبا . فهذه مواضع ينبغي للكاتب تفقدها فانما يكون كاتبا اذا وضع كل معنى في موضعه وعلق كل لفظة على طبقتها من المعنى فلا يجعل أول ما ينبغي له ان يكتب في آخر كتابه في اوله ، ولا اوله في آخره فاني سمعت جعفر بن محمد الكاتب يقول لا ينبغي للكاتب ان يكون كاتبا حتى لا يستطيع احد ان يؤخر اول كتابه ولا يقدم آخره .

واعلم انه لا يجوز في الرسائل ما أتى في آي القرآن من الايصال والحذف ومخاطبة الخاص بالعام والعام بالخاص لان الله سبحانه وتعالى انما خاطب بالقرآن اقواما فصحاء فهموا عنه جل ثناؤه امره ونهيه ومراده والرسائل انما يخاطب بها قوم دخلاء على اللغة لا علم لهم بلسان العرب وكذلك ينبغي للكاتب ان يجتنب اللفظ المشترك والمعنى الملتبس فانه ان ذهب الى مثل قوله تعالى واسأل القرية واسأل العير بل مكر الليل والنهار احتاج ان يبين بل مكركم بالليل والنهار ومثله في القرآن كثير

ولا يجوز في الرسائل ما يجوز في الشعر لان الشعر موضع اضطرار فاغتفروا فيه الاعراب وسوء النظم والتقديم والتأخير والاضمار في موضع الاظهار فمن الحذف قول الحطيئة « من صنع سلام » يريد سليمن بن داود وكقول الآخر « والشيخ عثمان ابو عفان » وكقول الآخر

وسائلة بثعلبة بن سير وقد علقت بثعلبة العلوق

اراد ابن سيار وكقول النابغة « ونسج سليم كل قضاء ذائل » يريد سليمن وكذلك ينبغي في الرسائل ان لا يصغر الاسم موضع التفخيم وان كان ذلك جائزا في مثل قولهم دويهية وجذيل وعذيق . ومما لا يجوز في الرسائل كنت اياك واعني اياك واساءة النظم .

سبيل [illegible] في الشعر كثير وتكون الكلمة [illegible] حتى إذا وقعت موقعها وقرنت مع أخواتها حسن حالها [illegible] كقول الحسن بن هانئ

[illegible] من [illegible] ولذلك كلمة [illegible] في الرقيق والغزل والتشبيب [illegible] حسنت [illegible] إذا لم توضع موضعها [illegible] قال

[illegible] [illegible] الظلام [illegible]

[illegible] في غير مكانها لأن الشاعر لا تكون ولا تصلح [illegible] كان من قول الشاعر

[illegible] [illegible] غير [illegible]
[illegible] [illegible]

[illegible] في مكانها وإن كان في صدر كتاب [illegible] حيثما جربت [illegible] من [illegible] الخطب والرسائل [illegible] الجزل [illegible] ولا [illegible] صدر كتاب [illegible] الطريقة من حده ولا [illegible] كرهوا أن [illegible] الأسطر الأولى [illegible] من [illegible] لأن الأسطر [illegible]

واعلم أن [illegible] التي لا [illegible] التي لا تتم [illegible] من الأمر [illegible] من المداد [illegible] درهم ورماد القرطاس [illegible] واجعلها في [illegible] وحشوت به دواتك وإذا [illegible] من مائه دواتك كان [illegible] كتابة القرطاس [illegible] الأقلام الفارسية ما استطعت فإنها لا تليق إلا [illegible] والتوفيق

واجعل قلمك براية حادة فان تشعث يد الكاتب وقت قطع القرطاس تنقص مروءته وتخل بظرفه وان قدرت ان لا تقطع القرطاس اذا فرغت من كتابك الا بخرطوم قلمك فافعل فان ذلك اكمل لمروءتك وابدع لظرفك وقلمك

واستعمل لبري القلم سكيناً طوالاً بسياً مذلق الحد ويبص الطرف فيكون ذلك عوناً لك على بري اقلامك فان محل القلم من الكاتب محل الرمح من الفارس ولئن قيل كأنه الرمح الرديني فقد قيل الكاتب كأنه القلم الحري . ولتفقد الانبوبة قبل بريكها لئلا تجعلها منكوسة وابرها من ناحية نبات القصبة وارهف ما قدرت جانبي قطك ليرد ما انتشر من المداد ولا تطل شقه فان القلم لا يعي المداد من شقه الا مقدار ما احتملت جنباه فارفع شقه ليجمعا الشعراني تحفيره واما قط القلم فعلى قدر القلم الذي يتعاطاه الكاتب من الخط غير ان المسلسل لا يكاد يتسلسل الا بالقلم المربع القط كما ان كتب الملوك والسجلات لا تحسن الا بالقلم المحرف الكوفي واما قلم اللازورد فهو المعتمد عليه والمقصود اليه في النوائب والمهمات

ورأيت كثيراً من الكتاب يختارون قلم النرجس لتجمده وتجانسه ومن اللازورد ابسط منه واقوم حروفاً واما الموشح والمولع والمدبج والمنمنم والمشهر فعلى قدر رشاقة خط الكاتب وحلاوة قلمه واما حسن الخط فلا حد له قال علي بن زيز النصراني الكاتب اعلمك الحذق كلمة واحدة لا تكتبن حرفاً حتى تفرغ مجهودك في كتابة الحرف المبدوء به وتجعل في نفسك انك لا تكتب غيره حتى لا تعجل عنه الى غيره . واياك والنقط والشكل في كتابك الا ان تمر بالحرف المعضل الذي تعلم ان المكتوب اليه يعجز عن استخراجه فلأن يشكل على الحرف احب الي من ان يعاب بالنقط والاعجام . وقال المأمون لكتابه اياي والشونيز في كتبكم يعني النقط ولذلك قال ابن هاني

لم ترض بالاعجام حين كتبته حتى كتبت السب بالاعراب

ولا تغفل الصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام فقد قال ابو العيناء ان بني أمية هم الذين كانوا امروا كتابهم فطرحوا ذلك من كتبهم فجرت عادة الكتاب الى يومنا هذا على ما سنوه . وقد قال عليه الصلاة والسلام لا تجعلوني كقدح الراكب ولكن اجعلوني في اول الدعاء واوسطه وآخره صلى الله عليه وعلى آله وسلم اولاً واوسطاً وآخراً

واحب ان تجعل بدل الاشارة التراب فان النبي صلى الله عليه وسلم قال أتربوا كتبكم فانه انجح للحاجة ولا تدع التاريخ فانه يدل على تحقيق الاخبار وقربها وبعدها

وانظر الى ما مضى من الشهر وما بقي منه فان كان الماضي اقل من نصف الشهر قلت لكذا ليلة مضت من شهر كذا وان كان الباقي اقل من النصف قلت لكذا ليلة بقيت وقد قال بعض الكتاب ان الماضي من الشهر ان تحصيه والباقي لا تحصيه لانك لا تدري ايتم الشهر او ينقص وليس هذا بشيء لان تاريخ الكتاب ليس من الاحكام في شيء وما ابقى الكاتب ان يكتب الا بما ظهر وتبين لا بما بطن

ولا تجعل سحاة كتبك غليظة الا في العهود والسجلات التي تحتاج الى خواتيمها وطوابعها قال محمد بن عيسى الكاتب كاتب آل طاهر اخبرني بعضهم ان عبدالله بن طاهر كتب الى العراق في اشخاص كاتب كان كتب اليه فكتب وغلظ سحاة كتابه فرد الكتاب اليه فقدم عليه راجيا امره وجائزته فقال عبدالله بن طاهر ان كان معك سحاة فاقطع حزم كتابك وانه في ورائك وكذلك لا تعظم الطينة في شيء من عمل الطينة فانه مظلوم ولا تطبعها الا بعد ختوماتها لان ذلك مرديهم وقد يجب عليك علم الصاق القراطيس ومحوها ولم ار شيئا في الصاقها الطف من ان ينقع الصمغ العربي في الماء ساعة حتى يذوب ثم يلصق به وكذلك ماء الكثيرا والنشاستج ثم تطويه طيا رقيقا وتجعله في منديل نظيف وترفع تحت وسادة حتى يجف واما محوها على قدر لطف الكاتب وتأتيه غير انه ينبغي له ان لا يسقط السواد من القرطاس الا بشيء الشمع المسحوق واللبان المضوغ وما اشبهها ثم يكون ذلك رويدا رويدا كما يسقط حوله الى الجانب الآخر

واما قراءة الكتب المختومة والتلطف لنقض خواتيمها فلا اذكره خوفا من سفيه

واما تضمين الاسرار حتى لا يقرأها غير المكتوب اليه ففيه أدب وقد تعلقت العامة بالقمي والاصبهاني فيجب ان يبدل الحروف تبديلا نحو والطف من ذلك ان تأخذ لبنا حليبا فتكتب به في قرطاس فيذر المكتوب اليه عليه رمادا حارا من رماد القراطيس فانه يظهر وان كتب بماء الزاج وذر عليه العفص المدقوق ظهر او بماء العفص وذر عليه شيئا من الزاج او ينقع شيئا من وشق ثم تكتب به ثم تذر عليه الرماد فانه يظهر وان احببت لا يقرأ بالنهار ويقرأ بالليل فاكتبه بمرارة السلحفاة وان تأولت صنعة رسالة او انشاء كتاب فزن اللفظة قبل ان تخرجها بميزان التصريف اذا عرضت والكلمة فارزة اذا سمعت فربما مرة بانا موضع يكون مخرج الكلام اذا حسب لفظة على الحسن من انا افعل واستفعلت احلى من فعلت

وأدر الالفاظ في اماكنها واعرضها على معانيها وقلبها على جميع وجوهها حتى تقع

موقعها ولا تجعلها قلقة نافرة فمتى صارت كذلك هجنت الموضع الذي اردت تحسينه واعلم ان الالفاظ في اماكنها كترقيع الثوب الذي اذا لم تتشابه رقاعه تغير حسنه قال الشاعر:

ان الجديد اذا ما زيد في خلق تبين الناس ان الثوب مرقوع

وارتصد لكتابك فراغ قلبك وساعة نشاطك فتجد ما يمتنع عليك بالكد والتكلف لان سماحة النفس بمكنونها وجود الاذهان بمخزونها انما هو مع الشهوة المفرطة في الشيء والمحبة الغالبة فيه او الغضب الباعث منه ذلك . قيل لبعضهم لم لا تقول الشعر قال: كيف اقوله وانا لا اغضب ولا اطرب . وهذا كله ان جريت من البلاغة على عرق وظهرت منها على حظ فاما ان كانت غير مناسبة لطبعك ولا واقعة شهوتك عليها فلا تنض مطيتك في التماسها ولا تتعب بدنك في ابتغائها واصرف عنايتك عنها ولا تطمع فيها باستعارتك الفاظ الناس وكلامهم فان ذلك غير مثمر لك ولا مجد عليك ومن كان مرجعه فيها الى اغتصاب الفاظ من تقدم والاستضاءة بكوكب من سبقه وسحب ذيل حلة غيره ولم يكن معه أداة تولد له من بنات قلبه ونتائج ذهنه الكلام الحر والمعنى الجزل لم يكن من الصناعة في عير ولا نفير

على ان كلام العلماء المطبوعين ودرس رسائل المتقدمين على كل حال مما يفتق اللسان ويوسع المنطق ويشحذ الطبع ويستثير كوامنه ان كانت فيه طبيعة قال العتابي: ما رأينا فيما تصرفنا فيه من فنون العلم وجربنا فيه من صنوف الآداب شيئاً اصعب مراماً ولا اوعر مسلكاً ولا ادل على نقص الرجال ورجاحتهم وأصالة الرأي وحسن التمييز منه واختياره من الصناعة التي خابرتها والمعنى الذي نبهته وليس شيء اصعب من اختيار الالفاظ وقصدك بها الى موضعها لأن اللفظة تكون اخت اللفظة وقسيمتها في الفصاحة والحسن ولا يحسن في مكان غيرها وتمييز هذه المعاني ومناسبة طبائع حملتها ومشاكلة ارواحهم جعلوا الكتابة نسباً وقرابة واوجبوا على اهلها حفظها

سهل بن وهب: الكتابة نفس واحدة تجزأت في ابدان متفرقة ومن لم يعرف فضلها وجهل اهلها وتعدى بهم رتبتهم التي وضعهم الله بها فليس من الانسانية في شيء .
قالت البرامكة: رسائل المرء في كتبه دليل على عقله وشاهد على غيبه قال الشاعر:

وتنكر ذا المرء في خط وجهه وتعرف عقل المرء حين تكاتبه

آخر:

وشعر الفتى يبدي غريزة طبعه وبالكتب يبدو عقله وبلاغته

الشعر [illegible] فضل الرجل إذا كتب وأجاب . الشعر [illegible] الناس مدونة في كتبهم . ابن المقفع : كلام الرجل وافد عقله [illegible] الحكماء [illegible] الألفاظ بالمعارض فإذا كساها الكاتب البليغ المعنى الجزل [illegible] القلب [illegible] والصدر [illegible] ولكنه [illegible] في سلك مع [illegible] كاللؤلؤ المنثور الذي [illegible] والجوهر [illegible] بأحكام الصنعة [illegible] [illegible] إن الحاذق [illegible] بين [illegible] [illegible] كان حبيب بن أوس [illegible] في موضع : [illegible] قال الشاعر

فلا [illegible] من الزجاج [illegible]

والياقوت [illegible] وكذلك الشعر [illegible] ولكنه من [illegible] الشعر [illegible] ابن [illegible] [illegible] الشعر في [illegible] في الشعر [illegible] [illegible] قال [illegible] القول [illegible]

[illegible] البلاغة [illegible] لا [illegible] الكلام [illegible] أهل [illegible] إلى [illegible] كما قال حبيب :

[illegible] لا [illegible] مفتون

ولكن [illegible] الشعر [illegible] إليه [illegible] من [illegible] الرسالة والخطبة والشعر [illegible] [illegible] من [illegible] من أهل الأدب والبلاغة [illegible] أن [illegible] [illegible] كلاماً [illegible] [illegible] الكتاب [illegible] ما قرأت [illegible]

فقال ارى عقل صاحب هذا الكلام اكثر من كلامه ففطن له ولم يجاوزه الى ان وقف به على تنور مسجور ثم قذف بالكتاب في النار وهذا رجل في عقله فضلة وفيه تمييز

وانما البلية فيمن اذا بينت له سوء نظامه واختياره ووقفته على سخافة لفظه هجرك وعاداك فاجعل هذا الاصل ميزاناً تزن به مذهبك في رسائلك وبلاغتك ولا تخاطبن خاصاً بكلام عام ولا عاماً بكلام خاص فمتى خاطبت احداً بغيرما يشاكله فقد اجريت الكلام غير مجراه وكشفته، وقصدك بالكلام الشريف للرجل الشريف تنبيه لقدر كلامك ورفع لدرجته قال :

فلم امدحه، تفخيماً لشعري ولكني مدحت بك المديحا

فلا تخرجن كلمة حتى تزنها بميزانها فتعرف ثقلها ونظامها ومواردها ومصادرها وتجنب ما قدرت الالفاظ الوحشية وارتفع عن الالفاظ السخيفة واقتضب كلاماً بين الكلامين

الجاحظ : ما رأيت قوماً امثل طريقة في البلاغة من هؤلاء الكتاب فانهم التمسوا من الالفاظ ما لم يكن متوعراً وحشياً ولا ساقطاً سوقياً : وقال خالد بن صفوان : ابلغ الكلام ما لا يحتاج الى كلام واحد، ما لم يكن بالبدوي المعرب ولا القروي المخدج الذي صحت مبانيه وحسنت معانيه ودار على السن القائلين وخف على آذان السامعين ويزداد حسناً على مر الدهر بغلبة الرواة وتقنية السراة والكاتب المستحق اسم الكتابة والبليغ المحكوم له بالبلاغة من اذا حاول صنعة كتاب سالت على قلمه عيون الكلام من ينابيعها وظهرت من معادنها وتدرب من مواطنها عن غير استكراه ولا اغتصاب

حدثنا صديق للعتابي قال له : اعمل لي رسالة واستمده مرة بعد اخرى فقال له : ما ارى بلاغتك الا شاردة فقال له العتابي : لما تناولت القلم تداعت علي المعاني من كل جهة فاحببت ان اترك كل معنى يرجع الى موضعه ثم اجتني لك احسنها . املى يزيد بن عبدالله اخو دينار على كاتب له واعجل عليه الاملاء فتعثر قلم الكاتب عن تقييد املائه فقال متعرضاً : اكتب يا حمار فقال الكاتب : اصلح الله الامير انه لما هطلت شآبيب الكلام وتدافعت سيوله على حرف القلم كلّ القلم عن ادراك ما وجب عليه تقييده فليتذكر الامير عذري فكان جوابه ابلغ من بلاغة يزيد . وكلما اعتدل الكلام وعذب ورق وسهلت مخارجه كان اسهل ولوجاً في الاسماع واشد اتصالاً بالقلوب واخف على الافواه ولا سيما اذا كان المعنى البديع مترجماً بلفظ مونق شريف ومعبراً بكلام مؤلف رشيق لم يشنه التكلف بميسمه ولم يفسده التعقيد باستهلاكه كقول ابن ابي كريمة

غطاه وجه حسن والذي غطاه وجه يشبه الشمسا

فيجمع المعنى بتوعر مخارج الحروف واحده الحسن بن هانئ فيه له وقال [illegible] حسن الوجوه حسن [illegible] وكلاهما من حسان حيث يقول:

فتزيدك الحسن من وجهه وأمله خير من التقى

وانظر الى سلاسة الحسن بن هانئ حيث قال:

شربت [illegible] لك [illegible] ذاك [illegible] فانك لاشك فيك السهل والجبل

وكتب عيسى بن لهيعة كتاباً الى بعضهم فعقد كلامه وجاء بما [illegible] فوقع له:

الهى يكون بايضا من انه كانت [illegible]
وثاث الحرف منه اذا كتبت [illegible]

ودخل كاتب على مريض ليعوده فلما خرج من عنده وجد طائراً يقال له الشفانين يباع في الطاق فاشتراه وبعث به اليه وكتب كتاباً يعلم فيه ويذكر انه يقال له الشفانين شفاء من الاذى فاجابه لو علمت خيراً منه لكنت عندي الا نبطيا فاقصر عن تعسفك وسهل كلامك ومثله [illegible] الموصلي يهجو حبيب بن أوس الطائي:

انت عندي عربي عربي والسلام
شعر ساقيك ولحا ديك خزامى وثمام
وقفا تحلف ما ان اعرفت فيه الكرام
[illegible] ان [illegible] لي فيك الاكام

وسألني بعض اهل العراق ان اكتب له قصة الى جعفر بن عبد الواحد القاضي وقال: اكتب لي قصة سهلة ليفهمها الاتقياء فقلت له: دعني اكتب لك ما يصلح للقضاة فغضب وقال ما بال ان تعطيني شيئاً مما سألتك هذا الفتى الاحمص [illegible] فكتبت له قصة لا تصلح ان تدفع الا الى [illegible] بن [illegible] بقرونها او الطرماح [illegible] فحصلت بيد القاضي [illegible] فقال له انت كتبت هذه القصة قال نعم [illegible] فقرأها [illegible] فقال اصلح الله القاضي [illegible] فقال له [illegible] حاجتك [illegible] بيتك [illegible] وسألني ان اكتب له قصة [illegible] فكتبت له كتاباً [illegible] ان يكون من مثله الى القضاة فقرأها وقضى حاجته [illegible] يكتب واحدة منهما بالكتاب

اذا لم يكن شبيها بلهجة صاحبه، كان احد الاسباب المانعة والمعاني كلها ممثلة والكلام مهيعا ولكن سياسته صعبة وأليمه شديد الا على جهابذته وفرسانه امراء الكلام يصرفونه كيف شاؤا ولا يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ولفظه معناه ويكون اللفظ الاسبق الى الاسماع من معناه الى القلب

الجاحظ : كان لفظه في وزن اشارته وطبعه في معناه في مطابقة معناه . ذكر الحسن ابن وهب عن احمد بن يوسف قال ما كنت أدري ألفظه أحلى أم معناه او معناه احلى ام لفظه . والمعاني وان كانت كامنة في الصدور محصورة فيها ومتصلة بها وهي كاللآلىء المكنونة في اصدافها والنار المخبوءة في احجارها لان اظهرته من أكنانه واصدافه تبين حسنه وان قدحت النار من مكانها واحجارها انتفعت بها والا بقيت محجوبة مستورة وبها باستظهار الكامن . ولا يستخرج الجواهر من جوهرها بقدر حذق المستنبط وصواب حركات المستخرج وقصد الحيلة ولطف مذاهبه وكذلك ليس كل ناطق ولا كاتب يوضح عن المعنى ولا يصيب اشارته وكلما كان الكلام افصح والبيان اوضح كان ادل على حسن وجه المعنى الخفي بالروح الخفي واللفظ الظاهر بالشيء الظاهر واذا لم يعرض المعنى الشريف لفظ شريف جزل لم تكن العبارة واضحة ولا الغطاء منسقا والدال على المعنى اربعة اصناف لفظ واشارة وعقد وخط

وذكر ارسطاطاليس خامسا وهي التي تسمى النصبة وهي الحالة الدالة التي تقوم مقام تلك الاصناف الاربعة الدالة بغير لفظ والمشيرة بغير يد وذلك ظاهر في خلق السموات والارض وفي كل صامت وناطق وهي داخلة في جملة هذه المعاني الاربعة وخارجة منها بالحلية

ولكل واحدة من هذه الدلائل صورة تابعة لصورة صاحبتها وحلية غير مشاكلة لحلية اختها غير انها في الجملة كاشفة عن اعيان المعاني ووضع هذه الدلائل صنفان منها وهما اللسان والقلم وكلاهما يترجمان ويدلان على الاسباب ويكشفان منه ويؤديان عنه ما لا تؤدي هذه الاصناف الاخرى

ومن اللسان فهي الآلة التي تخرج الانسان من حد الاستبهام الى حد الانسانية ولذلك قال صاحب المنطق : حد الانسان الحي الناطق والمبين عن الانسان اللسان وعن المودة [illegible] والله سبحانه رفع درجة اللسان فاطلقه من بين الجوارح بالتوحيد وما اعجز الله من عبر عن شيء مثل من لم يعرفه

الاعور الشني :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده   فلم يبق الا صورة اللحم والدم

وقال آخر

ان الكلام لفي الفؤاد وانما   جعل اللسان على الفؤاد دليلا

الطائي

ومما كانت الحكماء قالت   لسان المرء من خدم الفؤاد

فالخط صورة معروفة · وحلية موصوفة وفضيلة بارعة · ليست لهذه الاوصاف لانه ينوب عنها في الايضاح عند الشهود · ويفضلها في الغيب · وكفى بفضيلة القلم والخط قول الله عز وجل الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم واقسم به كما اقسم بخلقه ثم اقسم بما يكتبه القلم فقال عز جاهه واعظاماً لشأنه وتنبيهاً لذكره ن والقلم وما يسطرون ·· ومن فضيلة الخط انه لسان اليد ورسول الضمير ودليل الارادة · والناطق عن الخواطر · وسفير العقول ووحي الفكر · وسلاح المعرفة · ومحادثة الاخلاء على التنائي · وأنس الاخوان عند الفرقة · ومستودع الاسرار · وديوان الامور · وترجمان القلوب ·· والمعبر عن النفوس · والمخبر عن الخواطر · ومورث الآخر مكارم الاول والناقل اليه آثار الماضي واخباره وحكمته وعلمه والسامر العين بسر القلب ·· والخاطب عن الصامت · والمجادل عن الساكت · والمفصح عن الابكم والمتكلم عن الاخرس الذي تشهد له آثاره بفضائله واخباره بمناقبه وقد وصفت البلغاء من اعلام القلم [illegible] كأبي مسلم صاحب الدولة فرقت شمله وبددت جمعه ونقضت مبرمه وافسدت صلاحه وضعضعت بنيانه مع ذكائه وفطنته ومكايده ودهائه واصالة رأيه وشدة شكيمته [illegible] كيف استفزه ابن المقفع وصالح بن عبد القدوس وسهل بن يزيد واستمالوه بسحر الفاظهم وبلاغة اقلامهم حتى زل من بادرة عزمه وعقده ما اراد حتى وقع في الشرك المنصوب فتفرق جمعه وانطفأ نوره وصار حجراً [illegible] الطرف [illegible] الخطر لئيم الجنس درج من عش [illegible] كيف [illegible] البلاغة بضبعيه ورفعت من ناظره حتى طاولت به عنان السماء ورفعت بناءه فوق البناء حتى طاوله الكواكب وقصدته المطالب وخشعت له الرجال ورمقته العيون بالاجلال · وتمكن من الصنائع ومدت نحوه الاصابع · فشكرت منه [illegible] · ورجحت منه الحطة · كمحمد بن عبد الملك بن الزيات و[illegible] بن الجهم

احسن من عشرين بيتاً سدى جمعك معناهن في بيت
ما احوج الملك الى مطرة تغسل عنه وضر الزيت

فاجابه محمد بن عبد الملك :

رقيت في القول الى خطة قدرك فيها قد تعديت
قيرتم الملك فلم ننقه حتى غسلنا القار بالزيت

ومدحه حبيب بن اوس يمدحه ويصف قلمه :

لك القلم الاعلى الذي بشباته تصاب من الامر الكلى والمفاصل

وكان محمد من اثقف الناس ذهناً وأرقهم طبعاً واصدقهم حساً وارشقهم قلماً والطفهم اشارة : اذا قال أصاب واذا كتب ابلغ واذا شعر احسن واذا اختصر اغنى عن الاطالة امره الواثق ان يتلطف بعبدالله بن طاهر ويعلمه انه صرفه عن امر الجزائر والعواصم وفوض ذلك لابن عمه اسحق بن ابراهيم فكتب اما بعد فان امير المؤمنين رأى ان يخلع ما في يمينك من امر الجزائر والعواصم فيجعله في شمالك والسلام عليك ورحمة الله وبركاته

سهل بن بركة يهجو أبا نوح النصراني الكاتب فقال :

بابي وامي ضاعت الاحلام ام ضاعت الاذهان والافهام
من صد عن دين النبي محمد أله بأمر المسلمين قيام
إلا تكن اسيافهم مشهورة فينا فتلك سيوفهم أقلام

قال عبد الرحمن بن كيسان استعمال الكلام اجدر باحضار الذهن عند تصحيح الكتاب من استعمال اللسان في تصحيح الكلام ولم يختلف في شرف القلم وانما اختلف في كيفية البلاغة وماهيتها وقد مدحها كل قوم باوضح عباراتهم واحسن بيانهم قال صاحب اليونانيين البلاغة تصحيح الاقسام واختيار الكلام . الرومي : البلاغة وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الاشارة . الفارسي : هي معرفة الفصل من الوصل . الهندي : هي البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة ثم ان يدع الافصاح بها الى الكناية عنها اذ كان الافصاح اوعر طريقاً وربما كان الاطراق عنها ابلغ في الدرك واحق بالظفر . غيره : جماع البلاغة التماس حسن الموقع والمعرفة بساعات القول وقلة الحذق بما التبس من المعاني وغمض وبما شرد عليك من اللفظ وتعذر ثم قال وزين ذلك كله وبهاؤه وحلاوته ان تكون الشمائل معتدلة والالفاظ موزونة واللهجة نقية فان جامع ذلك السن والسمت

والجهال وطول الصمت فقد تم كل التمام . وقيل لهندي ما البلاغة فاخرج صحيفة مكتوبة عندهم فيها اول البلاغة اجتماع آلة البلاغة . وذلك ان يكون البليغ رابط الجأش ساكن الجوارح قليل اللحظ متخير اللفظ لا يكلم سيد الامة بكلام الامة ولا الملوك بكلام السوقة ويكون في قواه فضل التصرف في كل طبقة ولا يدقق المعاني كل التدقيق ولا ينقح الالفاظ كل التنقيح ويصفيها كل التصفية ويهذبها غاية التهذيب ولا يكون كذلك حتى يصادف فيلسوفاً حكيماً عليماً ومن قد تعود حذف فضل الكلام واسقط مشترك اللفظ

انوشروان لبزرجمهر : متى يكون العيي بليغاً فقال اذا وصف بليغاً

ارسطاطاليس : البلاغة حسن الاستعارة

بشر بن خالد : البلاغة التقرب من المعنى البعيد والتباعد عن خسيس الكلام والدلالة بالقليل على الكثير

خالد بن صفوان : ليس البلاغة بخفة اللسان ولا بكثرة الهذيان ولكنها اصابة المعنى والقرع بالحجة .

عمر بن عبد العزيز : البليغ من اذا وجد كثيراً ملأه واذا وجد قليلاً كفاه .

ابن عتبة : البلاغة دنو المأخذ وقرع الحجة والاستغناء بالقليل عن الكثير . بعضهم : اني لأكره للانسان ان يكون مقدار لسانه فاضلاً عن مقدار عقله كما اكره ان يكون مقدار عقله فاضلاً عن مقدار لسانه وعلمه . يكون من حظ البلاغة ان لا يؤتى السامع من سوء افهام الناطق ولا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع

عمرو بن عبيد سئل عن البلاغة فقال ما بلغك الجنة وعدل بك عن النار وما بصرك مواقع رشدك وعواقب غيك فقال السائل ليس هذا اريد . فقال من لم يحسن ان يسكت لم يحسن ان يستمع ومن لم يحسن الاستماع لم يحسن القول قال ليس هذا اريد . قال النبي عليه الصلاة والسلام : انا معاشر الانبياء بكاؤون وكانوا يكرهون ان يزيد منطق الرجل على عقله فقال له السائل ليس هذا اريد قال كانوا يخافون من فتنة السكوت وسقطات الصمت فقال ليس هذا اريد فقال فكأنك انما تريد تخير اللفظ في حسن الافهام انك اردت تقرير حجة الله في عقول المكلفين وتخفيف المؤونة عن المستمعين وتزيين تلك المعاني في قلوب المريدين بالالفاظ المستحسنة في الآذان المقبولة عند الاذهان رغبة في سرعة استجابتهم ونفي الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة على الكتاب والسنة كنت قد اوتيت فصل

الخطب واستوجبت من الله سبحانه جزيل الثواب . قال الخليل بن احمد : كل ما أدى الى قضاء الحاجة فهو بليغ فان استطعت ان يكون لفظك لمعناك طبقاً ولتلك الحال وفقاً وآخر كلامك لأوله مشبهاً وموارده لمصادره موازية فافعل واحرص ان تكون لكلامك متهماً وان ظرف ولفظك مستغرباً وان لطف وواتاك آلتك لك وتصرف ارادتك معك فافعل أن شاء الله

وهذه الرسالة عذراء لأنها بكر معانٍ لم تفترعها ألسنة الناطقين ولا لمستها أكف المفوهين ولا حامت عليها فطن المتكلمين ولا سبق الى لفظها اذهان الناطقين فاجعلها مثالاً بين عينيك ومصورة بين يديك وحاضرة في ليلك ونهارك فتطل عليك شآبيب معانيها ويشتد منها بركاتها وتبرد لك منافع الفاظها وتدل على منهج رشدها وتصدرك والله الموفق بمنافع بحر احسانها ان شاء الله عز وجل والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

◆

جابلق وجابلص او جابلقا وجابلصا

كان الافرنج قبل ان يعمدوا لدرس اللغات الشرقية يسمعون اسماء تعزى الى العرب ويعدون معظمها خرافات خيالية لا نصيب لها من الحقيقة بل ولا اثر لها في عالم الوجود . ولما اخذوا بالبحث عن تلك الامور والاخبار لما تعلموا يرجعون شيئاً فشيئاً عما عزوه اليهم تحكماً أو تهكماً . وطفقوا ينصفونهم بتفصيل بين الوهم . الا انه مما يمكن ان يقال في هذا الصدد ان الناطقين بالضاد غالوا في ذكر بعض الامور الفرضية حتى كاد المغرور يخرج عن طوقه بما صنعوه من الامور الوهمية لئلا يحسب من ابطال من فرسان الميدان . ومن هذا القبيل حال المدينتين اللتين نريد ان نبحث عنهما في نبذتنا هذه .

(الاختلاف الحادث فيها)

قال في التاج في مادة جبلق : التهذيب : جابلق وجابلص (اي بفتح الباء الموحدة التحتية وفتح اللام في كليهما على ما ضبطنا كتابة) واما في القاموس فقد ضبطها ايضاً بالفتح في جابلق وبالفتح أو بالسكون في جابلص . وذكرهما ياقوت في معجمه : جابرس وجابلق اي براكنهما بالف ساكنة بعدها باء الموحدة التحتية . وبلام ساكنة بعدها في الثانية